المحاضرة الرابعة:

العمارة الإسلامية والقوانين الاجتماعية

أولا:العمارة الإسلامية

لم يكن هنالك اهتمام بالعمارة في بداية ظهور الإسلام وإن كان هنالك بعض القصور التي اشتهرت في لعالم العربي منها الخورنق عند المناذرة وكذلك قصور اليمن التي منها قصر غمدان وعند هجرة النبي إلى المدينة المنورة ظهر الاهتمام بداية الأمر في بناء المسجد ليكون مركزا سياسيا وإداريا إضافة لوظيفته الدينية ثم أنشئت حوله مساكن المهاجرين ومنزل الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم ظهرت معالم المدينة الجديدة بأن تضمنت خطط يسكن كل خطة أفراد ينتمون إلى أسرة واحدة وتكرر إقطاع الخطط على الأساس عند بناء المدن الإسلامية في العصور التالية .

وقد كان لامتداد العرب خارج حدود الجزيرة العربية وانتصارهم على الفرس والروم واختلاطهم بشعوب تلك المناطق واطلاعهم على فنونهم المعمارية وجمعهم للثروة ، أثر في تقنيد هذه الشعوب في عمارتهم فبنواالقصور والدور والمساجد وأدخلوا عليها الكثير من التطور بحيث يتلاءم مع تعاليم الإسلام فظهر فن معماري إسلامي بصورة جديدة ومتميزة ، وظهر على المنشآت الإسلامية خصائص مميزة كالعقود والأعمدة والأقواس والمقرنصات والقباب والمآذن والمشربيات المزخرفة في البيوت وظهر ما يعرف بعلم عقود الأبنية عند المسلمين ، وأصبحت أقواس (حذوة الفرس) تدل على الفن المعماري الإسلامي.

المدن الإسلامية:

احتاج المسلمون بعد اتساع حركة الفتوحات إلى بناء مدن جديدة وهدفت إلى عدم اختلاط المسلمين بالشعوب المغلوبة لكي يحافظوا على صفاتهم وميزاتهم ومن هنا اتخذت المدن الجديدة طابعا عسكريا ، فبنيت لتكون معسكرات للجيش حيث نقل إليها الجنود وأهلهم وذويهم، وبنو لهم مساكن حول المعسكرات ، وكانت البصرة أقتم المدن التي بناها المسلمون في العراق عند ملتقى دجلة وقرات وذلك سنة 14 هـ . ويعود بناء المدن عندالمسلمين إلى عوامل عدة : العامل العسكري حيث بدأت أكثر المدن كمعسكرات خاصة بالجيش منها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، أما العامل الإداري فبعض المدن بنيت لتكون مقرا للإدارة الإسلامية ، والعامل

السياسي هناك قيام العباسيين ببناء مدينة بغداد عام 145 هـ لتكون عاصمة لهم ، وقيام جوهر الصقلي ببناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة للفاطميين عام 362هـ، أما العامل الديني فأنشئت عدة مدن لاعتبارات دينية منها النجف لوجود ضريح الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكربلاء ....، أيضا هناك عامل توفر المياه وصحةالمناخ والموقع الاستراتيجي وحصانة المنطقة وسهولة المواصلات.

وصارت السمة البارزة للمدينة الإسلامية وجود عناصر ضرورية أهمها المسجد الذي يتوسط المدينة ثم قصر الإمارة بجانبه و دواوين الدولة الإسلامية ثم المراكز والمحال والأسواق والقيساريات والحمامات ثم البيوت والأحياء.

المساجد:

بعد المسجد مركز الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية ويمارس فيها المسلمون وظائفهم المختلفة ، فيستقبلون الوفود ويتدارسون شؤون حياتهم ، ويجلسون فيه للقضاء ويجتمعون لاتخاذ قرار السلم والحرب، وهو فوق ذلك المكان الذي يؤدي فيه المسلم شعائره الدينية تقربا الله عز وجل، ومن أجل ذلك كان المسجد أول وأهم المباني التي أولاها المسلمون عنايتهم وقد راعوا في بنائه أن يكون فنا معماريا مغايرا لفن معمار الكنائس والأديرة والمعابد الوثنية، فلم يكن فيها رسوم وصور وتماثيل وزينوها بالآيات القرآنية الشريفة والرسوم النباتية والأشكال الهندسية ، وكان مسجد المدينة أول المساجد التي اتخذها المسلمون وتم توسعته مرات عديدة ليتسع للمصلين ، واتخذ بناؤها نظاما مستطيلا على الأغلب، وقسم لقسمين صحن المسجد أي مكان الصلاة وهو القسم المسقوف ، والساحة الخارجية وهي ساحة فضائية مكشوفة تتصل بالمسجد يتوسطها بركة ماء تستخدم غالبا للوضوء ، ويحيط بها أربعة أروقة تستندها الأعمدة، فكان أغلب المساجد الإسلامية وفق هذا النظام ، ثم تم إضافة المنارات منذ العصر الأموي .

أما مميزات المسجد من الداخل فهناك المنبر الذي يتوسط جدار القبلة ليصعدعليه الخطيب وهناك المحراب في جوار المنبر ويكون غائرا في الجدار لتحديد اتجاه القبلة، ومن أبرز المساجد الإسلامية؛ المسجد الأموي في دمشق ، مسجد قبة الصخرة المشرفة (القدس) ، جامع قرطبة (الأندلس).

القصور الإسلامية:

حرص معظم الخلفاء على الاستمتاع بالحياة الدنيوية ، والتظاهر بمظاهر الترف والأبهة والفخامة ، فاهتموا بإنشاء القصور المنمقة والمزينة بالزخارف النباتية والهندسية، وتدلنا الآثار الأموية الباقية من قصور الخلفاء على تجاوز الأمويين استخدام الزخرفة إلى استخدام التصوير في القصور والحمامات ومنها القصور الأموية والقصور العباسية.

فالقصور الأموية يتجلى بناؤها في البادية ، ميل الأمويين الأصيل إلى الفن، وانجذابهم نحو البادية حيث التمتع بهدوء الصحراء التي عاش فيها آباؤهم قبل عصر الفتوحات، وحن إليها أبناؤهم ، ولا شك أن ملكات العرب الفكرية تبعت من البادية ، ونعني بما ملكات الحس والشعور والخيال وهي مصدر الإلهام بالنسبة إلى الشعراء والحكماء ، ولهذا أثر خلفاء بني أمية الذين لم تغنهم حياة الترف واللهو في المدن ، أن يقصدوا البادية للتنعم فيهابالراحة والهدوء ، أو الفرار من الطاعون ولهذا أقاموا معظم قصورهم على حافة البادية، وأبرز القصور قصر الخضراء (إلى جانب الجامع الأموي)، قصر الحير الغربي (قرب تدمر)، قصر عمرة (الأردن) وغيرها من القصور.

أما القصور العباسية فكان الخلفاء العباسيون والأمراء وغيرهم مولعين ببناء القصور الفخمة ومنها ؛ قصر الذهب بناه المنصور وسط بغداد وفي صدر هذا القصر إيوان طوله ثلاثون ذرعا وعرضه عشرون يعلوه قبة عليها مجلس وفوق هذا المجلس القبة الخضراء ، وارتفاع العقد ثمانين ذراعا، أيضا هناك قصر الخلد ويقع على شاطئ دجلة الغربي تجاه باب خراسان ، وقد تأنق المنصور في بنائه وتجميله حتى سكي الخلد تشبيها له بالجنة.

ويمكن القول أن الخلفاء بنوا القصور العالية التي تحف بها الحدائق الوارفة الظلال وتجري من تحتها الأنهار ، كما لبسوا أرقى أنواع الحرير وجعلوه لحياة العمل لباسا ولحياة اللهو لباسا آخر ، وأكلوا ما لذ وطاب من ألوان الطعام والشراب ، واحتوت قصورهم أجمل أنواع الأثاث.

ثانياً . القوانين الاجتماعية:

1. التنظيم الاجتماعي:

كان الأساس في التنظيم الاجتماعي قبل الإسلام يعتمد على تشكيل القبيلة ، ويتبع لها طبقة عرفت باسم الوالي، وهم الذين دخلوا في ولاء القبيلة ،وهناك العبيد والأرقاء ممن تم شرائهم أو أسراهم ، وعندما مجيء الإسلام أصبحت رابطة العقيدة الإسلامية أساس المجتمع الإسلامي، فوضع الإسلام مبادئ أساسية لتنظيم المجتمع منها ماكان بين الأسرة كعلاقة الرجل بالمرأة والأبناء والآباء وغيرهم ، كما اهتمت بالفرد والمجتمع من خلال الحقوق

والواجبات، ومسؤولية الفرد تجاه أسرته والفقراء ، وجعل أساسها المودة والرحمة والتواصل وكذلك المساواة بينالمسلمين في الحقوق والواجبات.

2. مبدأ التكافل الاجتماعي:

وقد أرسى الإسلام مبدأ التكافل الاجتماعي عبر نفقة الأقارب ووجوبها ، وجعل له نصيب من الحرية إلا أنه رابطها بمصلحة الجماعة ، كما أرسى نظام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقرر مسؤولية الفرد عن أعماله أما

صلاح الفرد في المجتمع الإسلامي فكان مربوط بطاعة الله وبقدر ما يقدمه الفرد للمجتمع ، والتزام المسلم بالعبادات ما يجعله من ناحية يحظى بمرضاة الله ويبعده من ناحية أخرى عن الآثام والسيئات والتي تعرض المجتمع للانهيار فمن ذلك مثلا الصلاة التي تشغل الفرد عن اللهو والعبث ، والصيام الذي يعمل على ضبط شهوة الطعام والغرائز والزكاة التي تذكر بحق الفقير وتضبط شهوة حب المال.

3 . الرق:

من المظاهر الاجتماعية في الإسلام الرق وكما هو معروف الرق هو استعباد الناس وامتلاكهم والرقيق هم العبيد ، والعبد هو الذي يصبح ملكا لغيره ويفقد حريته في التملك والرق كان معروفا قبل الإسلام عند البابليين والمصريين والفرس واليونان والرومان وغيرهم، أما في الإسلام فمصادر الرقيق أي ملك اليمين يأتي من الأسر في الحروب حيث أجاز الشرع استرقاق سكان المناطق المفتوحة غصبا ولم يدخلوا الإسلام ولم يدفعوا الجزية ، وذلك الممارسة التجار لهذه التجارة واستقدامها من الأسواق الخارجية ومن ثم إدخالها إلى المدن الإسلامية ويبيعها في أسواق سميت أسواق النخاسة . وقد وضع الإسلام محددات للرق ولم يقم بمنعها فقد حرم استرقاق الأحرار دون سبب مشروع وعمل على تنظيم شؤون الأرقاء والأخذ بأيديهم نحو الحرية وساوى بينهم وبين أسيادهم في الطعام والشراب واللباس والتعلم وحذر من إساءة معاملتهم ، واستخدموا في الخدمة المنزلية ، وكذلك الغزل والنسيج.

4. المرأة:

أما فيما يخص المرأة فقد تمتعت المرأة بمكانة قبل الإسلام فقد ساهمت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية رغم أن هناك من القبائل من تطيروا منها ووصلوا إلى حد وئد البنات منها قبائل ربيعة وكندة وتميم ، ولما جاء الإسلام منع الظلم عن المرأة وحرّم وأدها ، وأوصى الآباء بالبنات خيرا ، وأكرم المرأة واعترف بأهليتها في الحقوق المدنيةوالمالية

ولم يفرق بينها وبين الرجل في المجالين الإنساني والاجتماعي وجعل لها حقا في الميراث وحرّم إكراه البنت على الزواج ، وشاركت المرأة في ميادين الحياة المختلفة كالجهاد في خدمة الجرحى وبرزت في العلوم الدينية والوعظ والفقه والحديث ، وشاركت في الأدب والشعر والحكمة والسياسة ، وتبوأت مكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي منهن عائشة أم المؤمنين و أسماء بنت أبي بكر، و غيرهما.

5. نظام الأسرة:

وفيما يتعلق **بنظام الأسرة** فقد عرفت الأسرة في الإسلام تطورا ونظاما مميزا وفق الشريعة الإسلامية فكان الزواج في الإسلام عقد دائم يربط الرجل بالمرأة ارتباطا مقدسا ، وهو واجب اجتماعي للحفاظ على النوع الإنساني ، وقد حث الإسلام على الزواج لأنه عماد الأسرة والأسرة عماد المجتمع ، وقد حدد الإسلام شروط الزواج وسمح الإسلام بتعدد الزوجات (أربعة) شريطة العدل والمساواة بينهم. ونظم الطلاق الذي هو حل الرابطة الزوجية وأحلهلضرورات في الإسلام وهناك الطلاق الرجعي والبائن بينونة صغرى والطلاق البائن بينونة كبرى ، كما نظمالإسلام الميراث وأطلق الفقهاء اسم الفرائض على المواريث والفرض في الشرع هو النصيب المقدر للوارث من تركة البيت ، ولم يكن العرب في الجاهلي يورثون النساء أو الصغار من الذكور لأن الإرث عندهم لمن يركبون الخيل ويغزون العدو وعند مجيء الإسلام أبطل ذلك كله وفرض للذكر مثل حظ الأنثيين وقد فرض الإسلام قانون التوريث لمنع تكديس الأموال في أيد قليلة والحد في الفروق بين الطبقات ، وحدد شروط الميراث وكل ما يخص هذه المسألة وفق الشريعة الإسلامية.

وتحدث الإسلام عن الوصية وهي هبة الإنسان غيره عينا أو دينا أو منفعة على أن يملك الموصى له الهبة بعد موت الموصى وفيه منفعة كبيرة للأطفال وحاجتهم للمال في حالة وفاة الوالدين.

بعض المراجع:

- أحمد حامد المجالدي ، هايل خليفة الدهيسات : الحضارة العربية الإسلامية أسسها ومنجزاتها،ط1، كنوز المعرفة، الأردن، 2012.

- فاضل محمد الحسيني :آفاق الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع الأردن ، 2006.

- الربعي بن سلامة : الحضارة العربية الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2009.

- عاطف علبي: الحضارة العربية الإسلامية ودورها في تكوين الحضارة الأوروبية ، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان ، 2009.

- سلامة صالح النعيمات ، وآخرون، الحضارة العربية الاسلامية القاهرة مصر، 2008.

- شايف عكاشة، الحضارة العربية الإسلامية بين التطور والتخلف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1994.